قصة مصرية

حـــــــلم وانقضى

بقلم الاستاذ محمود بك تيمور

(من كتاب أبو على عامل أرتست تحت الطبع)

— ١ —

محمد أفندى العتر ، وكيل البوسته ببلدة الكوامل ، شاب أوفى على الأربعين . تعين فى وظيفته هذه منذ عشرة أعوام ، لم ينتقل فى أثنائها من البلدة ؛ وكان قبلا موظفـاً صغيراً فى دور البريد الكبرى فى عواصم المديريات . وبلدة الكوامل ، أو بالأحرى محطة الكوامل ، بلدة صغيرة من بلاد الأرياف لا يقف عليها إلا قطاران من الركاب وبعض قطـارات من البضاعة . ومحمد افندى العتر يعيش عيشه مملة فى حجرة دارالبريد ، يساعده غلام صغيريدعوه محمد أفندى « بالمراسلة » ؛ ففى أوقات العمل يرى وكيل البوسته جالساً فى دار البريد مهتاج الخاطر ، يسب غلامه ، ويرمى بالخطابات والطرود يميناً وشمالا ، وهو ينفخ ويزمجر ، لاعنا الساعة التى أتى فيها إلى هذه البلدة الحقيرةالمهجورة ؛ حتى إذا ملشتم غلامه بدأيشتم الفلاحين وينعتهم بأقبح النعوت ؛ فاذا مل شتمهم جعـل يشتم نفسه ، واصفا إياها بالجبن والكسل والاستسلام ؛ وعندما ينتهى من عمله الرسمى ، يخرج إلى قهوة « مانولى » بجلبـابه القذر وجاكتته الصفراء الكالحة ذات الأزرار النحاسية ، وطربوشه منحدر إلى الوراء تاركا شعره المنفوش مبعثراً على قمة رأسه ، يجر فى قدميه شبشباً أملس بلا كعب ؛ فاذا ما استقر فى القهوة جاءه « مانولى » بالشيشة وفنجال القهوة وإحدى الجرائد اليومية ، فيمضى « محمد أفندى » وقته يدخن ويبصق ويطالع الأخبار وينكت مع من حوله ويتفرج على الفلاحين وهم رائحون غادون أمامه ، مستنشقاً الهواء المشبع بالتراب الذى تثيره الدواب خلفها .

ومن الغريب أن « محمد أفندى » يشكو الوحدة وملل العيش ، وهو الذى يعرف كل من هب ودب من سكان القرى والبنادر . وهناك غير قهوة « مانولى » دكان « عم ربيع » الذى يقصده « محمد أفنـدى » عند مايكون منزله قفراً من الطعام ؛ فيأكل فيـه « أم الفلافل » و « السلطة » و « الباذنجان المقلى » ، وربما عثر فى الصيف على منقوع الحلبة يرطب به جوفه

الحار ، هذا فضلا عن أخبار ونوادر يطرفه بها عم ربيع . وتوجد سكة الجسر التي تقوم بجوار الترعة ، يذهب اليها «محمد أفندى» في أعصر كل يوم ليشاهد الفلاحات ويغازلهن ، وليتفرج أيضاً على اكسبريس العصر . ولديه – غير ذلك – الجامع يقصده كل يوم جمعة لا اصلاحاً ولا تديناً ، بل ليتسلى بالتفرج على الفلاحين وهم يغتسلون فى الميضة ، وليتفكه بحديث ساذج معهم . وهنالك أيضاً سوق «الأربعاء» يذهب إليها مرة فى الأسبوع وقت انعقادها ، لا ليشترى أو ليبيع ، بل ليساوم فى أثمان الطيور والدواب قتلا للوقت ، وليما كس المارين ويتشاجر معهم .

ولكنه مع كل هذا تجده متبرماً بعيشه ، يقضى حياته دائم التثاؤب والتمطى ، ينتف شعيرات لحيته التى لا يحلقها إلا من الجمعة للجمعة ، ويقرض بأسنانه أطراف شاربه المشوه ؛ وفوق هذا فمحمد أفندى خليلة من الفلاحات تبلغ الخامسة والأربعين ، عليها دلائل التهدم المبكر ، تحمل له الماء لملء الزير ، وتقوم له ببعض الخدمة المنزلية ، تعرّف بها منذ أن حل ببلدة الكوامل ؛ وهو مع ملله منها وكرهه لها لم يفكر لحظة فى تركها .

— ٢ —

وأخيراً انتقل ناظر محطة الكوامل إلى جهة أخرى ، وحل محله ناظر آخر : رجل يبلغ الخمسين ، مهيب الطلعة ، بشوارب ضخمة مبرومة ، وعيون كعيون الصقر ، لها بريق قوى ، متوجة بأهداب سوداء غليظة . وتوثقت بين «خميس أفندى» الناظر الجديد ، و «محمد أفندى العتر» صداقة متينة ؛ ولكنها كانت صداقة الكبير مع الصغير ؛ إذ كان محمد أفندى العتر يشعر – وهو فى حضرة خميس أفندى – برهبة واحترام لا يعرف لهما سبباً ؛ فكان إذا قابله انحنى له مسلماً بخضوع غريب ، وإذا مر أمامه خميس أفندى قام محمد أفندى فزعاً وهرول إليه ، وهو يقول : جنابك عاوز حاجة ؟

وعندما يقف قطار الركاب على المحطة ، ويخرج خميس أفندى من حجرة « النظارة » متبختراً كالأسد المهيب ، ترى خلفه محمد أفندى يسير منكمشاً فى بعضه كالقط المضروب ، يدعك يديه ببعضها ، وينظر إلى الناظر بابتسامة ذليلة ، ولسان حاله يقول :

– أنا فى الخدمة دائماً يا أفندم .

وشاعت فى البلدة أن لخميس أفندى زوجة سودانية آية فى الملاحة ، لم تتخط بعد عامها السابع عشر ، لها رشاقة ودلال نساء المدينة الخليعات ؛ فأرهف محمد أفندى العتر سمعه لهذه الأخبار المشوقة اللطيفة ، فكان يجلس على كرسيه جلسة استرخاء ، ويضع رجلا على رجل ، ويبدأ يسأل الناس عن هذه الحسناء ، وهو يلعب حاجبيه ويغمز بعينيه ، وعيناه النصف مفتوحتين تتيهان فى نشوة الأحلام . وإذا عاد إلى دار البريد ، وأخذ يقوم بعمله الميكانيكى بفرز الرسائل

والطرود ، انحنى على غلامه يسأله بصوت منخفض قائلا :

— أرأيت ياولد زوجة ناظر المحطة ؟

فيجيبه الولد ببلاهة ريفية :

— لا والله يا أفندى .

فينظر إليه محمد أفندى نظرة احتقار وغيظ ويتمتم قائلا :

— وماذا تعمل إذن فى هذه البلدة يا أهبل يامغفل ؟

وعلم أخيراً « محمد أفندى » أن السودانية الحسناء تخرج من منزلها فى الأسبوع مرة لتزور زوجة العمدة، وهى تخترق دائماً الطريق الصغير ؛ فتمر دائماً أمام دكان «عم ربيع» فى الذهاب والإياب ؛ فشد محمد أفندى ركابه إلى الدكان ، واتخذه محلا مختاراً يمضى فيه الوقت من العصر حتى صلاة العشاء ، ممنياً النفس بمشاهدة مليحته . وقد رأى أنه من العار عليه أن يقصد هذا المكان وهو بهيئته البشعة ، فعزم على أن يجدد نفسه وملابسه ، وكانت ثورة كبيرة انتهت بأن استدعى الحلاق عنده ليحلق له لحيته ويهذب شعره ويعطره ، وطلب منه أن يأتى لزيارته كل يوم لنفس الغرض، وأرسل بدلته إلى عاصمة المركز لتغسل وتكوى له ، ثم اشترى «حقاً» من الورنيش ، وأمر غلامه أن يمسح له حذاءه يومياً . وكان يذهب إلى الدكان وهو يمشى متبختراً ببدلته الصفراء النظيفة والعطر يفوح منه ، ثم يأمر عم ربيع أن يضع له كرسياً أمام الباب ، يجلس عليه مترقباً « مرورها » .

وأخيراً مرت السودانية الحسناء أمامه فى ملاءتها التى كانت تحكم شدها حول نفسها ، فتظهر أعضاء جسمها بارزة مغرية ، وكانت تتثنى فى مشيتها بقوامها اللدن ، وتتلفت يميناً وشمالا، تنثر الابتسامات لكل الجهات ، فسحر بمرآها محمد أفندى ، وأصابه نوع من الاضطراب والخبل شل حركته والجم لسانه ؛ وكم حاول غير مرة أن يرد على ابتسامتها بابتسامة ، غيرة متواضعة ؛ فيجد من عضلات وجهه تخاذلا عجيبا . وكانت أمنيته الوحيدة فى الحياة أن يأتى بحركة أو إشارة تفهم منها الغانية أنه معجب بجمالها وهائم فى حبها ؛ ولكنه — لفرط غيظه — كان يشعر — عند مرورها — بتصلب تام فى أنحاء جسمه ؛ فكأنه تمثال من حجر ؛ وإذا مرت واختفى طيفها الجميل فى الطريق ،يعود إليه إحساسه ، وتطاوعه عضلات وجهه ؛ فيصرخ من أعماق قلبه منادياً عم ربيع ، ويمسك بيديه يهزها بعنف وغضب وهو يقول له :

— لماذا خلقنى الله بهذا الطبع ؟ أنا مصيبة من مصائب الزمن .

فينظر إليه عم ربيع مشدوهاً ، لا يفهم لكلامه معنى ؛ وإذا ما انتهت العاصفة وعاد لمحمد أفندى بشره ؛ ينحنى على محدثه قائلا :

— ما رأيك ياعم ربيع فى السودانيات ؟

فتلمع لحية عم ربيع وتبرق عيناه ويقول مدارياً ارتباكه :

— أنا رجل فى حالى يامحمد أفندى ، إعمل معروف اتركنى وشأنى .

فيمسكه محمد أفندى من جلبابه ويشده منه ويقول — وقد اكتسى وجهه بنشوة عادئة — :

إنهم يقولون إن السودانيات لهن طراوة عجيبة ياعم ربيع ، أجسامهن لينة كالعجين ، إذا وضعت أصبعك — مثلا — على ذراع إحداهن ساخ كأنه فى ملبن ؛ ومن الغريب أن لهن حيوية عجيبة فى الحب لا تجدها فى النوع الأبيض ، حيوية هائلة تشعر بلهيبها يدب فى جسمك من أقل لمسة تلمسها لهن . . . آه ياعم ربيع على قبلة واحدة منهن ! إن طعمها يبقى عالقاً فى فك مدى الحياة . فيسقط عم ربيع من طوله ويقعد القرفصاء ، أمام محمد أفندى ، يلتهم بلذة عظيمة أوصافه الخلابة . . .

— ٣ —

وأخيراً قنع محمد أفندى بالنظر إلى محبوبته — من بعيد لبعيد — ، ورضى بالخيال دون الحقيقة ، وبالأحلام دون اليقظة ، وانقلبت حياته رأساً على عقب ؛ فاختفى محمد أفندى الكسول القذر الهيئة ، المشاغب الذى لا يجد فى العيش إلا السآمة والتعب ، وحل محله محمد أفندى النشيط الأنيق الوديع ، الذى ينظر إلى الدنيا نظرة الحب والابتهاج ؛ فرضى عن غلامه كل الرضا ، وخص خليلته بكامل عطفه ، وأغدق عليها المال والهدايا ؛ وكان إذا ما اختلى بها دنامنها — وهو مغمض العينين — وقال لها بصوت فيه نشوة الأحلام :

— قبلينى يا حبيبتى ! قبلينى فى فى قبلة طويلة جداً . . . ويتطعم القبلة ، ويطلب المزيد منها ، متخيلا نفسه أمام سودانيته الحسناء تغمره بالقبل الحارة الطويلة ؛ وكان يذهب إلى القهوة ، لا ليقرأ الجرائد ، ولا ليتفرج على المارين ، بل لينظر تائها فى الفبار ، يتخيله سحباً رقيقة تسير فى الفضاء ، تسبح فيها حسناؤه برشاقة وإغراء ؛ وقد كثرت نزهاته الخلوية وسط الغيطان وجلساته التائهة بجوار الغدران ، يناجى نفسه بالمواويل الغرامية يغنيها بصوت ضعيف وهو يتنهد ويتمطى وينظر إلى السماء ؛ وكان يستنشق النسيم بقوة ويفتح ذراعيه على آخرهما ، كأنه يريد أن يملأ رئتيه بكل ما فى الغيط من هواء ؛ وإذا عاد إلى بيته مساء جلس على حافة النافذة يسامر النجوم والقمر ، ويصوغ لنفسه — بلذة عميقة — حوادث غرامية مع حبيبته ، متخيلا إياها فى أحضانه يعصر عودها الرخص بذراعيه ، ويرشف من ثغرها الرطب حلاوة الحياة .

وذهب مرة إلى القهوة ونادى صاحبها ، ثم مال عليه فى استرخاء وقال :

— عندك فونوغراف يامانولى ؟

— عندى يابيه ! ولكنه مكسور .

— ارسله للتصليح ، وأنا المكلف بمصاريفه .

وبعد أيام دار الفونوغراف : وغنى لحمد أفندى «أصل الغرام نظرة» ؛ فشعر محمد أفندى بطرب لم يشعر به طول حياته ، وأحس كأن قوة هادئة لذيذة تمشى فى أعصابه فتخدرها رويداً رويداً ، وانهال على شاربه ينتفه ، وهو فى نشوة الطرب ؛ وأعاد الدور عدة مرات ، وكان يشارك الفونوغراف فى الغناء ، وهو يصرخ متأوهاً بآهات طويلة عميقة ، بعد كل وقفة فى الدور ، ويخبط بيديه على المائدة أو يعض أنامله دون أن يشعر بالألم .

وقد دعاه ناظر المحطة عدة مرات ليتناول الطعام عنده فى البيت ؛ فكان يذهب إلى المكان تام الزينة كأنه عريس فى ليلة دخلته ؛ ويجلس مرهف السمع لأقل حركة تصدر عن الدور الأعلى ؛حيث توجد الزوجة ، فإذا سمع صوت أقدام تروح وتجىء ، خيل إليه أنه يسمع موسيقى تهبط عليه من السماء . . . . هذا بينما ناظر المحطة يروى له حياته ، وكيف قضاها بين قطارات الاكسبريس والركاب : حياة جمة ونشاط ؛ مفعمة بجلائل الحوادث العظام؛ فكان محمد أفندى يحييه بين فترة وأخرى وهو غارق فى أحلامه ومناجاته قائلا :

— قطارات الاكسبريس والركاب ؟! الله يكون فى عونك ياشيخ !

وفى هذه اللحظة يتخيل أنه سمع خشخشة أساور ، فينتشى طرباً لحلاوة نغماتها ، ويعود إلى خياله فيتصور أذرعاً عارية جميلة ذات بشرة ملساء شهية تعانقه عناقاً طويلا .

— ٤ —

وهكذا أمضى محمد أفندى العتر ثلاثة أشهر من حياته ، لم يشعر فى أثنائها إلا بكل ماهو شهى وجميل فى الحياة ... أحلام لذيذة وتخيلات عذبة كان يظنها ستدوم له إلى الأبد ؛ ولكن ما كان أشد حسرته عندما علم أن خميس أفندى ناظر المحطة سينتقل إلى محطة أخرى أكبر شأناً من محطة الكوامل ؛ وأنه سيترك البلدة إلى مقر وظيفته الجديدة بعد أيام قلائل .

وحل يوم الوداع ؛ فأخذ محمد أفندى يساعد الخدم فى نقل العفش من المنزل إلى المحطة ، ولعظم بلواه علم سراً أن زوجة الناظر قد سبقت زوجها فى قطار الصباح لتعد له المنزل وقت وصوله . وكان محمد أفندى يسير مطرقاً حزيناً على رصيف المحطة يقرض أظافر يديه ، ويركل بقدمه زكائب المحاصيل وعفش الفلاحين ، وهو يسب نفسه والناس على السواء .

ولما حل الميعاد وسمع دوى القطار ، خرج خميس أفندى من حجرة النظارة فى جمع من الموظفين والأعيان جاءوا للاحتفال بتوديعه ؛ وكان يسير بتؤدة ووقار ، يهز نفسه إلى الأمام وإلى الخلف كالجمل ، ويبرم شاربه الغزير برماً هادئاً ؛ فلما رآه محمد أفندى هرع إليه وأمسك يديه وهو يشهق باكياً ، فنظر إليه الناظر فى شفقة وشكره ، وقد أخذه العجب من إخلاصه؛ بهز يديه ولاطفه على ظهره ملاطفة أبوية .

وعاد محمد أفندي المتر إلى بيته ، وقد لبست البلدة أمام عينيه حلة سوداء بشعة ، وكان يحس في قلبه بشيء ثائر يماثل الحية يلدغه باستمرار لدغات لا يستطيع احتمالها، تدفعه إلى الصراخ والمشاحنة والضرب ، وانهال على غلامه وخليلته يكيل لهما اللكمات والرفسات على كل لون .

وذهب إلى قهوة «مانولي» ، ولكنه لم يكد يستقر به المقام حتى ضرب المائدة بيده وحطم فنجان القهوة ، مدعياً أن البن من النوع الرديء ، وقام من فوره قاصداً أسواق البلدة - وكان اليوم يوم الأربعاء - فأخذ يتمنت مع البائعين ، ويثير غضبهم بكلماته الجارحة ، ولم يهدأ حتى اشتبك مع أحدهم في مشاجرة عنيفة خرج منها مبطوحاً ممزق الثياب .

ومرت الأيام فهدأت سورة محمد أفندي ، وعاد إلى سابق حياته ، فأهمل حلاقة لحيته إلا يوم الجمعة من كل أسبوع ، وخرج كل يوم إلى قهوة « مانولي » بهيئته البشعة عاري الرأس يضع على كتفيه — بإهمال — جاكتته الصفراء القذرة ، ويجر في قدميه شبشبه البالي ، وأخذ يحضر من جديد صلاة الجمعة — بعد أن أهمل حضورها ثلاثة أشهر كاملة — ليتفرج على الفلاحين وهم يتسلون في الميضة ، ويتفكه بحديثهم الساذج معه . . .

وعندما كان يخطر على باله بعض ذكريات من أيام غرامه العذري ، كان يتنهد بحرارة وهو ناظر إلى السماء بعيون دامعة ، ويناجي نفسه قائلا :

— ايه يا محمد . . . حلم وانقضى . . . ؟

محمود تيمور

واجبك ! . . هل أديته ؟

انك ستؤديه بلا ريب

أيها الشباب المثقف :

إن مجلة « المعرفة » سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ، وهي المجلة المصرية التي يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ، فليكن تعضيدكم إياه مشجعاً له ولغيره . . على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه